من صور المجتمع المصري :

عرس في مأتم

للاستاذ علي الجندي

كانت الجنازة تسير في خطى وئيدة إلى مدينة الأموات ! وفي أذيالها نوائح مفتحات بالسواد ، يتبارين في شق الجيوب ولطم الخدود ! ومن بينهن فتاة في طراءة السن ، بيضاء اللون ، فاحمة الذوائب ، ساجية العينين ، محطفة الخصر ، تتأطر في مشيتها وتتمايل في الإرنان والنحيب ! وتميل على وجنتيها باللطم فيكاد يفيض منهما الدم ! حتى شق ذلك على صواحبها فقلن لها : ارحمي شبابك يا « جل » .

وقد كنت أظن بادىء النظر أنها تصدر في ذلك عن كبد حرى وفؤاد مقروح ، ولكني رأيتها في سر من رفيقاتها تثني سالفتيها ، وتحزر عينيها ، وتفتر عن بسمات الدل والإغراء ! فأيقنت أن هذا الدمع زيف ، وأن ذلك الحزن مصنوع لا مطبوع ! يا للمفارقات العجيبة ! !

قطعة زاخرة من الحياة تدلف في ركاب الموت ! ونغم حلو شجي يرتفع بين التشييع والعويل ! وبسمة وضيئة ترف على عبوس الأحزان ! !

لقد استطاعت هذه الحسناء اللعوب أن تذهل الناس عن جلال الموت ! ولكنها استطاعت كذلك أن تصلهم بالصانع الحكيم الذي أبدع هذه الدمى الفاتنة فأدقها وأجلها !

وقد أوحى إلى هذا المشهد الفريد هذه الأبيات ولكن أشهد أن ما بقي في نفسي من ذلك أعظم وأجل !!

لا تنوحي كما ينوح النساء ... أنتِ نور ، ومن طين وماء

أنتِ عرس تطغي على المأتم الصا ... خب منه الأنغام والأضواء

أنت تحت الخشوع في موكب المو ... ت دلال ، وفتنة شمواء

أنت بين النحيب ، واللوعة الحرى ... نعيم ، وبهجة ، وصفاء

أنت بين الأحزان ، والألم المشـ ... ـبوب زهر ، وخمرة ، وغناء

اتقي الله في خدودك ، فالور ... د من اللطم جذوة حمراء

اتقي الله في عيونك فالنر ... جس أدمت أجفانه الأنداء

ويلاه أن يذبل النرجس الغض ... ويلهو بوردتيك الفناء

كيف تأمى مَن وجهها في الأمى المبـ ... ـرح روح[1] ، وسلوة ، وعزاء

كيف تبكي من نفرها لمة البـ ... ـشر إذا جد بالحزين البكاء

لا تقولي : أبكي رياء ، فما يحـ ... ـسن من حسنك البريء الرياء

لا تقولي : هي المداراة ، فالنا ... س جميعاً — إذا سلمت — هباء

ما عهدنا أن يخمش (البدر) خديـ ... ـه وأن تسكب الدموع (ذكاء)

جلت الصنعة العلية أن يُلـ ... ـطم وجه يشع منه الضياء

فابسمي للحياة ، فالحسن بسا ... م ، وقبح أن تمتطي الحسناء

وارحمي في الشباب فالفطرة البيـ ... ـضاء تأبى أن تستكين الظباء

***

أي نعش سارت تشيعه الشمـ ... ـس وتمسي وراءه الجوزاء

شغل الحامليه ظبي رخيم ... لاعب بالعقول كيف يشاء

قد ضمنا أن ينزل «الخلد» ميت ... لمست عود نعشه « حوراء »

كيف لم تعبق الجنازة[1] مسكا ... من شذاها ، وتورق «الحدباء»

***

حسبك الله ! قد نسينا بك المو ... ت ، والموت حولنا ضوضاء

بين سود الثياب ، والفاحم الفيـ ... ـنان وجه ، له الوجوه فداء

عجب الناس أن يروا في الضحا الما ... ثم بدراً تحفه ظلماء

ومهاة تحت الأسى تتثنى ... خوط بان تهزه النكباء

كلما ماس عطفها انسدل الشعر ... فغطى على الصباح المساء

وتنزت رمانتان من العا ... ج ، وماجت حقيبة بجراء

ترسل الصوت كالبغام ، وترنو ... بعيون ، تغتيرها صهباء

وتندى خدودها عبرات ... تصف الحزن ، وهي منه براء

تصنع الدمع صنعها الدلّ ، والتمـ ... ـثيل فن تجيده « حواء »

وهي حيناً تجلو جُمانَ لثات ... تتمنى سلافها الندماء

بسمات بين الدموع كما افتر ... عن البرق مزنة وطفاء

كل شيء فيها يناديك أن تخـ ... ـلع ثوب الوقار حتى البكاء

ومن الفانيات مَنْ كلها فن ... أنيق ، وكلها إغراء

ما عليها لو حجبت ناظريها ... فاستراحت من الجوى الأبرياء

دينها الفتك ! لا السوابغ خرز ... من ظباها ولا التروس وقاء

***

سمت طرفي الإغضاء عنها ، فماصا ... فني ، وصعب عن مثلها الإغضاء

ليت شعري ما رابني من جمال ... هو لله حجة بيضاء

(١) راحة .

(١) بالكسر : الميت .